الفصل الثالث والعشرون

هنرى الثامن والكاردينال ولزى

١٥٠٩ ـ ٢٩

١ ـ ملك واعد: ١٥٠٩ ـ ١١

لم يكن أحد ممن رأوا الفتى الذى ارتقى عرش إنجلترا عام ١٥٠٩ يتنبأ بأنه هو البطل والوغد معاً فى أكبر حكم درامى فى التاريخ الإنجليزى. وعندما كان غلاماً فى الثامنة عشرة من عمره كانت بشرته الرقيقة وتقاطيعه المنتظمة تجعله جذاباً كالفتاة أو يكاد، بيد أن ما يتمتع به من قوام رياضى وجرأة سرعان ما قضى على أى مظهر للأنوثة فيه. وتبارى السفراء الأجانب مع المادحين الوطنيين فى الثناء على شعره الأصحم، ولحيته الذهبية و « وربلة ساقه الفائقة الجمال » وفى تقرير كتبه جيوستنيانى إلى مجلس شيوخ البندقية قال: « إنه مغرم بالتنس، وإن أجمل شىء فى الوجود أن تراه وهو يلعب، وبشرته الجميلة تتألق من خلال قميص نسيجه جد رقيق(١) »، وكان فى الرمى بالسهام والمصارعة يضارع أحسن الأبطال فى مملكته ولم يكن يبدو عليه فى الصيد قط أى تعب، وكان يخصص يومين كل أسبوع المبارزات، ولم يكن فى وسع أحد أن ينافسه. إلا الدوق سفولك. وكان موسيقياً مثقفاً أيضاً، و « غنى وعزف على كل ضروب الآلات وأظهر موهبة نادرة »، (كما كتب القاصد الرسولى للبابا) ولحن قداسين لا يزالان باقيين، وكان يعشق الرقص وحفلات المساخر ومظاهر الأبهة

والثياب الجميلة . ويروقه أن يكسو نفسه ثياباً من فرو الفاقوم أو أردية أرجوانية ، وكان القانون ينص على أن له وحده الحق فى ارتداء الديباج الأرجوانى أو الذهبى ، وكان يأكل بتلذذ ، ويصل أحياناً مآدب الغذاء الرسمية إلى سبع ساعات ، ولكنه فى السنوات العشرين الأولى من حكمه كبح جماح شهيته . وكان كل الناس يحبونه ويعجبون بسماحة أخلاقه اللطيفة وسهولة الوصول إلى قلبه ومرحه وتسامحه وحلمه . ورحب الناس بارتقائه العرش وكأنه إيذان بفجر عصر ذهبى .

واغتبطت الطبقات المتعلمة أيضاً لأن هنرى فى أيام السكون تلك كان يطمح أن يكون عالماً بطلا رياضياً على السواء وموسيقياً وملكاً ، ولما كان قد أعد فى الأصل ليكون من رجال الدين فقد أصبح على دراية بعض الشىء باللاهوت ، وكان فى وسعه أن يستشهد بآيات من الكتاب المقدس لأى غرض وكان له ذوق جميل فى الفن ، واقتنى مجموعة تدل على درايته ، وكان حكيماً فى اختياره هولبين لتخليد كرشه . وقام بدور فعال فى أعمال الهندسة وبناء السفن والتحصينات والمدفعية . وقال عنه سير توماس مور : إنه أعلم من أى ملك إنجليزى قبله[٢] » — وليس هذا بالثناء العظيم . وتابع مور كلامه قائلا : « ما الذى لا نتوقعه من ملك غذى بلبان الفلسفة وربات الفنون التسع[٣] ؟ » وكتب مونتجومرى مبهوتاً إلى إرازموس ، وكان حينذاك فى روما ، يقول : « ما الذى لا تعلل به نفسك من أمير تعلم جيداً ما فطر عليه من موهبة خارقة وخلق يكاد يكون إلهيا ؟ ولكن عندما تعرف أى بطل يقيم الآن الدليل عليه ، وكيف يتصرف بحكمة ، وأى محب للعدالة والخير ، وأى مودة يحملها للمتعلمين ، فإنى أتجاسر وأقسم لك بأنك لن تكون فى حاجة إلى جناحين تطير بهما لتشهد هذا النجم الجديد السعيد .

أواه يا إرازموس العزيز . لو أنك استطعت أن ترى كيف أن العالم بأسره هنا مبتهج لأن عنده أميراً عظيما كهذا ، وكيف أن حياته هى كل ما يبتغون فلن تتمالك نفسك من أن تذرف دموع الفرح . إن السموات لتضحك والأرض لتبتهج(٤) » .

وجاء إرازموس وشارك فى هذا الهذيان لحظة . وكتب يقول : « فيما مضى كان قلب المعرفة بين من يزعمون أنهم من رجال الدين والآن بينما ينصرف هؤلاء فى الأغلب الأعم إلى شهوات البطون والترف والمال(*) فإن حب العلم ذهب منهم إلى الأمراء العلمانيين والحاشية والنبلاء وإن الملك لا يقبل فى بلاطه رجالا مثل مور فحسب ، بل إنه يدعوهم ويجبرهم — على أن يرقبوا كل ما يفعل وأن يشاطروه تبعاته وملذاته . وهو يفضل صحبة رجال مثل مور على صحبة الأغبياء من الفتيان أو الفتيات أو الأغنياء(٥) » . وكان مور أحد أعضاء مجلس الملك وليناكر طبيب الملك وكوليه واعظ الملك فى كنيسة القديس بولس .

وفى السنة التى ارتقى فيها هنرى العرش ، أنفق كوليه الجانب من الثروة التى ورثها عن أبيه لتأسيس مدرسة القديس بولس . واختير نحو ١٥٠ صبياً لكى يدرسوا هناك الأدب الكلاسى واللاهوت المسيحى وعلم الأخلاق ، وخالف كوليه التقاليد بتعيين مدرسين علمانيين فى المدرسة ، وكانت أول مدرسة غير إكليروسية فى أوروبا . وعارض « الطرواديون » الذين كانوا يندون فى اكسفورد بتدريس الكلاسيات ، برنامج كوليه بحجة أنه يؤدى إلى الشك الدينى ، بيد أن الملك حكم ضدهم ومنح كوليه تشجيعه الكامل . وعلى الرغم من أن كوليه نفسه كان محافظاً فى عقيدته ومثالا للتقوى ،

(*) بيد أن أصدقاء إرازموس من رجال الدين ، دين كوليه وفيشر أسقف روشستر وكبير الأساقفة وارهام كنتربرى كانوا أصدقاء مخلصين من ذوى المروءة والعلم .

obeikandi.com

فإن أعداءه اتهموه بالهرطقة ، فأخرسهم وارهام كبير الأساقفة وأذعن هنرى . وعندما رأى كوليه أن هنرى يميل إلى الحرب مع فرنسا ندد علناً بسياسته وأعلن ، كما فعل إرازموس ، أن سلاماً ظالماً خير من أعدل الحروب . وندد كوليه بالحرب ، حتى وهو مجتمع بالملك فى الصلاة ، باعتبارها صفعة فى وجه تعاليم المسيح ، ورجاه هنرى على انفراد ألا يضعف معنويات الجيش ، ولكن عندما حرض الملك على أن يخلع كوليه أجاب قائلا : « ليكن لكل إنسان قسيسه الخاص . . . إن هـذا الرجل هو قسيسى(٦) » . واستمر كوليه يفسر تعاليم المسيحية تفسيراً جاداً . وكتب إلى إرازموس (١٥١٧) يقول بروح توما أكمبى : آه يا أرازمرس ، لا حد هناك لكتب المعرفة ، وليس هناك أفضل من أن نعيش حياة طاهرة مقدسة فى هذا الأجل القصير الذى كتب علينا وأن نبذل جهدنا فى حياتنا اليومية ، وأن نتطهر ونتثقف . . . بالحب المتأجج والاقتداء بيسوع . ولهذا فإن أعظم رغباتى إلحاحاً هى أن نسير قدماً ، معرضين عن كل السبل غير المباشرة مؤثرين بطريقة قصيرة توصل إلى الحقيقة . وداعاً(٧) .

وفى عام ١٥١٨ أعد قبره البسيط ولم ينقش عليه إلا اسم جوهانس كوليتس ودفن فيه ، بعد عام ، وأحس كثيرون أن قديساً قد مات .

٢ — ولزى

كان هنرى ، الذى قدر له أن يصبح تجسيداً لأمير مكيافيلى ، لا يزال بعد حدثاً بريئاً فى السياسة الدولية . وعرف حاجته إلى الإرشاد وجعل من الرجال حوله نماذج . وكان مور ذكياً بيد أنه لم يتعد الحادية والثلاثين ، وكان يميل إلى الطهارة والتقوى . وكان توماس ولزى يكبره بثلاثة أعوام فحسب ، وكان قساً إلا أن اتجاهه بأكمله للسياسة ، والدين عنده جزء من

obeikandi.com

السياسة . وقد ولد توماس فى إبسوتش من « أصل وضيع ودم خسيس » (هكذا وصفه جويكيا ردينى المعتز بنفسه)(٨) . وقد استوعب مقرر شهادة البكالوريا فى أكسفورد وهو فى الخامسة عشرة من عمره ، وعندما بلغ الثالثة والعشرين عمل صرافاً فى كلية مجدالين ، وأظهر كفاءته باستخدام مبالغ مناسبة ، تتجاوز السلطة المخولة له ، لإتمام البرج الرائع لتلك القاعة وعرف كيف ينجح . وأظهر فطنة فى الإدارة والمفاوضة فقام بالوعظ فى سلسلة من الكنائس ليخدم هنرى السابع بتلك المقدرة والدبلوماسية .

وعندما ارتقى هنرى الثامن العرش عينه موزعاً للصدقات — مديراً للبر والإحسان . وسرعان ما أصبح القس عضواً فى المجلس الخاص . وأفزع واهرام كبير الأساقفة بدفاعه عن عقد حلف عسكرى مع اسبانيا ضد فرنسا ، وكان لويس الثانى عشر يغزو إيطاليا ، ومن المحتمل أن يجعل البابوية تابعة لفرنسا من جديد . وعلى أية حال فإن فرنسا لا بد أن تصبح قوية جداً . وخضع هنرى فى هذا الأمر لولزى وحميه فرديناند ملك أسبانيا ، وكان هو نفسه يجنح فى هذا الوقت للسلم ، وقال لجيوستنيانى « إنى راض بما أملك ، ولا أود أن أحكم إلا رعاياى ، ولكنى من جهة أخرى لا أقبل أن يبلغ أحد من القوة ما يجعله يتحكم فى »(٩) ، ويكاد هذا يلخص حياة هنرى السياسية ، فقد ورث ادعاء الملوك الإنجليز أن لهم الحق فى تاج فرنسا ، ولكنه عرف أنه ادعاء أجوف . ووهنت الحرب سريعاً فى موقعة المهاميز (١٥١٣) . ودبر ولزى للســلام وأغرى لويس الثانى عشر بالزواج من مارى شقيقة هنرى ، وسر ليو العاشر لنجاته فعين ولزى رئيساً لأساقفة يورك (١٥١٤) . وكردينالا (١٥١٥) ، وعينه هنرى ، المنتصر ، حاجباً (١٥١٥) . وفاخر الملك لأنه حمى البابوية ، وعندما رفض أحد البابوات أن يتولى فيما بعد تيسير زواجه عد هذا جحوداً .

وكانت السنوات الخمس الأولى التى قضاها ولزى فى منصب الحاجب من أعظم السنوات توفيقاً فى سجل الدبلوماسية الإنجليزية . وكان يهدف إلى تنظيم السلام فى أوروبا باستخدام إنجلترا وسيلة لحفظ التوازن فى القوى بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة وفرنسا ، وكان المفروض أن مما يدخل أيضاً فى دائرة سلطانه أن يصبح حكماً لأوروبا وأن يكون السلام فى القارة فى مصلحة تجارة إنجلترا الحيوية مع الأراضى المنخفضة . وتفاوض كخطوة أولى ، لعقد حلف بين فرنسا وإنجلترا (١٥١٨) ، وخطب مارى ابنة هنرى البالغة من العمر عامين (أصبحت ملكة فيما بعد) إلى ابن فرانسيس الأول البالغ من العمر سبعة شهور . ولا شك أن ميله للضيافة الكريمة قد كشف عنه ما حدث عند ما حضر المبعوثون الفرنسيون إلى لندن لتوقيع الاتفاقيات ، فقد أقام لهم وليمة فى قصر وستمنستر ، قدم لهم فيها عشاء ، قال عنه جيوستنيانى : « أن مثيله لم يقدم قط ، على مائدة كليوباترة وكاليجولا ، وأن قاعة المأدبة بأسرها زينت بزهريات ضخمة من الذهب والفضة[١٠] » . غير أن الكاردينال المحب للدنيا يلتمس له العذر ، فقد كان يقامر ليكسب رهاناً عظيماً ، فكسب . وأصر على أن يكون الحلف مفتوحا لينضم إليه الإمبراطور مكسمليان الأول وشارل الأول ملك أسبانيا والبابا ليو العاشر ، ودعوا للانضمام إليه فقبلوا ، وابتهج أزازموس ومور وكوليه ، إذ داعبهم الأمل فى أن يكون فجر عهد السلام قد أشرق على العالم المسيحى بأسره . وتلقى ولزى التهانى حتى من أعدائه . وانتهز الفرصة لرشوة المندوبين الإنجليز[١١] فى روما لكى يضمن تعيينه قاصداً رسوليا للبابا فى صف بريطانيا والعبارة تعنى : « فى صف » وموضع ثقة ، وكان أرفع تعيين لمبعوث بابوى . وكان ولزى وقتذاك الرئيس الأعلى للكنيسة الإنجليزية وحاكم إنجلترا — مع ولاء استراتيجى لهنرى .

وعكر صفو السلام بعد عام تنافس فرانسيس الأول وشارل الأول على العرش الإمبراطورى : بل إن هنرى رأى أن يقذف بقلنسوته فى الحلبة غير أنه لم يجد رجلا مثل فوجر . وزار الفائز ، وهو وقتذاك شارل الخامس، انجلترا زيارة قصيرة (مايو سنة ١٥٢٠) وقدم احتراماته لعمته كاترين الأراجونية ، الملكة زوجة هنرى ، وعرض أن يتزوج الأميرة مارى (التى كانت مخطوبة بالفعل لولى عهد فرنسا) ، إذا وعدت انجلترا أن تؤيد شارل فى أى نزاع بينه وبين فرنسا ، وهكذا السلام ، أمر غير طبيعى ، فرفض ولزى ولكنه قبل من الإمبراطور مرتباً قدره ٧,٠٠٠ دوكات ، وانتزع منه تعهداً بأن يساعده على أن يصبح بابا .

وحقق الكاردينال الذكى أعظم انتصار باهر له بتدبير لقاء بين العاهلين الفرنسى والإنجليزى فى ميدان كلوث أف جولد (يونيو ١٥٢٠) . وهنالك فى أرض فضاء مكشوفة بين جين وآردر قرب كاليه برز فن العصر الوسيط والفروسية فى روعة الغروب . وانطلق أربعة آلاف نبيل انجليزى ، اختارهم الكاردينال وعينهم ، وكانوا يرتدون الملابس الحريرية والمزركشة والمخرمات من أزياء القرون الوسطى المتأخرة ، فى صحبة هنرى بينما امتطى الملك الشاب ذو اللحية الحمراء صهوة فرس صغيرة لملاقاة فرانسيس الأول . وأخيراً وليس آخراً ، أقبل ولزى نفسه مرتدياً ثياباً قرمزية من الأطلس ينافس بها أبهة الملوك . وقد شيد على عجل قصر لاستقبال صاحبى الجلالة ومرافقيهما من السيدات والموظفين ، وأقيمت سقيفة يكسوها قماش تتخلله خيوط ذهبية ، وتتدلى منه طنافس ثمينة ليظلل المؤتمر والمآدب ، وكانت هناك نافورة يسيل منها النبيذ ، وأخليت مساحة لألعاب الفروسية الملكية ، وتدعم الحلف السياسى والعسكري بين الأمتين ، وتبارى العاهلان السعيدان فى المبارزة بل وتصارعا ، وخاطر فرانسيس بسلام أوربا بطرحه الملك الإنجليزى ، وأصلح خطواته الخاطئة بكياسة فرنسية لا نظير لها بالذهاب ، مبكراً ذات

صباح وهو مجرد من السلاح مع بعض الأتباع غير المسلحين ، لزيارة هنرى فى المعسكر الإنجليزى — وكانت لفتة تدل على الثقة الودية فهمها هنرى . وتبادل الملكان الهدايا الثمينة والأيمان المغلظة .

والحق أن أحداً منهما لم يستطع أن يثق بالآخر ، لأن التاريخ علمهما درساً مفاده أن الرجال يكذبون كثيراً عندما يحكمون دولا . وبعد سبعة عشر يوماً أمضاها هنرى ينعم بالولائم مع فرانسيس ، انطلق يمضى ثلاثة أيام فى مؤتمر مع شارل فى كاليه (يوليه سنة ١٥٢٠) . وهناك أقسم الملك والإمبراطور ، فى حضور ولزى ، على الصداقة الأبدية واتفقا على ألا يقدما على خطوات أخرى لتنفيذ خطتيهما للزواج من الأسرة المالكة فى فرنسا . وكانت هذه الأحلاف المنفصلة أساساً أشد قلقلة للسلام الأوروبى من الاتفاق الودى متعدد الجوانب الذى كان ولزى قد دبر له قبل وفاة مكسمليان ، وإن كان قد ترك انجلترا فى وضع الوسيط ، والحكم فى الواقع — وهو وضع أسمى بكثير من أى وضع يمكن أن يعتمد على ثروة الإنجليز أو سلطانهم . وكان هنرى راضياً . وأمر رهبان سانت البانز باختبار ولزى رئيساً لديرهم ومنحه صافى دخلهم ، وذلك مكافأة لحاجبه ، لأن « سيدى الكاردينال قد تحمل الكثير من التكاليف فى هذه الرحلة » . وأذعن الرهبان ووصل دخل ولزى إلى ما يقرب من احتياجاته .

وكان ، على نطاق أوسع بكثير من معظمنا ، مزيجا من الفضائل والنقائض المركبة ، وكتب جيوستنيانى يقول : « إنه وسيم جداً ، فصيح للغاية ، واسع المقدرة ، لا يكل ولا يمل[١٢] » . وكانت أخلاقه لا تخلو من الشوائب ، فقد انزلق مرتين إلى الأبوة غير الشرعية ، وكانت تعد من الهفوات التى تغتفر فى ذلك العصر الطروب .

ولكن إذا صدقنا ما قاله أسقف ، فإن الكاردينال كان يعانى من

« الزهرى(١٣) » وقبل ما يمكن ، أو ما لا يمكن أن يسمى بالرشـــا ـ هدايا عظيمة من المال تلقاها من فرانسيس وشارل على السواء ، وحرص على أن يجعلهما يتنافسان على أن يأمرا له بمرتبات وهبات سخية قدماها ، وكانت هذه من آداب مجاملة العصر ، وأحس الكاردينال المبذر ، الذى شعر بأن سياسته تخدم أوروبا بأسرها ، بأن أوروبا كلها يجب أن تخدمه . وليس من شك فى أنه كان يحب المال والترف والأبهة والســلطان . وكان جانب كبير من دخله يصرف فى الحفاظ على مؤسسة قد يكون تبــذيرها السطحى أداة من أدوات ـ الدبلوماسية ، صممت لكى تعطى السفراء الأجانب فكرة مبالغاً فيها عن الموارد الانجليزية . ولم يدفع هنرى أى مرتب لولزى ، ولهذا كان على الحاجب أن يعيش ويولم لضيوفه على حساب موارده الكنسية ومرتباته التى يتقاضاها من الخارج . وحتى لو كان الأمر على هــذا النحو فإننا قد نعجب لأنه احتاج لكل الدخل الذى كان يحصل عليه باعتباره صاحب الحق فى دخل أبرشيتين ، وست رواتب للقسس ، ومرتب رئيس جامعة ، ومرتب باعتباره رئيسا لدير سانت البانز وأسقفا لباث وولز ، ورئيساً لأساقفة يورك ومديراً لأبرشية ونشستر وشريكاً لأســقفى ورسستر وسالزبورى الإيطاليين الغائبين(١٤) .

وكان له تقريباً الحق فى الرئاسة الدينية والسياسية بأسرها فى المملكة والمفروض أنه كان ينال مكافأة عن كل تعيين يتم . وقدر مؤرخ كاثوليكى أن ولزى كان يتلقى فى أوج مجده ثلث دخول الكنيسة فى إنجلترا (١٥) ؛ كان أغنى وأقوى الرعايا فى الأمة ؛ ومن رأى جيوستنيانى أنه كان « أقوى من البابا ـ بسبعة أضعاف (١٦) « ويقول إرازموس : « إنه الملك الثانى » ولم يبق أمامه إلا خطوة واحــدة ـ يقوم بها ـ البابوية . وحاول ولزى الحصول عليها مرتين ، ولكن شارل الداهية فاقه فى تلك اللعبة ، متجاهلا وعوده .

واعتقد الكاردينال أن التمسك بالمراسيم دعامة القوة ، ويستطيع المرء بالقوة أن يتبوأ السلطة ولكنه لا يستطيع أن يدعمها بثمن بخس وفى هدوء وسلام إلا بالتعود عليها أمام الجمهور ، والناس تحكم على سمو المرء بمقدار تمسكه بالرسمية التى يحتمى بها . ولهذا فإن ولزى كان يظهر فى الحفلات العامة والرسمية مرتدياً أفخر الملابس الرسمية التى خيل إليه أنها مناسبة لمثل كل من البابا والملك . قبعة كاردينال حمراء ، وقفازين حمراوين ، وأردية من التافتاه القرمزية وحذاء من الفضة أو مموهاً بالذهب ، ومرصعاً باللآلىء والأحجار الكريمة — ها هو ذا أنوسنت الثالث وبنيامين دزرائيلى وبروفل الجميل اجتمعوا معاً فى شخص واحد . كان أول من لبس الحرير[١٧] بين رجال الدين فى انجلترا . وعندما كان يردد القداس (وهو أمر نادر) كان شماسته من الأساقفة والرهبان ، وفى بعض المناسبات كان النبلاء من حملة ألقاب دوق وايرل يصبون الماء الذى يغسل به يديه المقدستين . وأذن لتابعيه أن يركعوا وهم يخدمونه على المائدة . وخدمه فى مكتبه وبيته خمسمائة شخص[١٨] ، كثير منهم من ذوى النسب العريق . وكانت قلعة هامبتون التى شيدها لتكون مقراً له باذخة جداً إلى حد أنه أهداها للملك (١٥٢٥) ليتقى شر حسده .

ومهما يكن من أمر فإنه نسى أن هنرى كان ملكاً . وكتب جيوستنيانى إلى عضو شيوخ من البنادقة : « لدى وصولى لأول مرة إلى انجلترا اعتاد الكاردينال أن يقول لى إن جلالته سوف يفعل كذا وكذا » . وبعد ذلك — بالتدريج نسى نفسه وبدأ يقول : « سوف نفعل كذا وكذا » أما الآن يقول « سأفعل كذا وكذا »[١٩] ، وكتب السفير مرة أخرى يقول : « إذا كان لا بد من إغفال أمر الملك أو الكاردينال فمن الأفضل التغاضى عن الملك ، فالكاردينال قد يستاء من السبق الذى يسلم به للملك[٢٠] » وقلما كان الأشراف والدبلوماسيون يحصلون على الإذن بالمثول فى حضرة الحاجب قبل تقديم

الالتماس الثالث . وكلما مر عام كان الكاردينال يحكم صراحة حكماً مطلقاً يشتد يوماً بعد يوم ، واستدعى المجلس النيابى مرة إبان رئاسته ، وكان قليل الاهتمام بالأشكال الدستورية ، وقابل المعارضة بالاستياء والنقد بالزجر . وكتب المؤرخ بوليدور فرجيل يقول : « إن هذه الوسائل سوف تؤدى إلى سقوط ولزى » فأرسل فرجيل إلى البرج ، ولم يطلق سراحه إلا بعـــد أن تشفع له ليو العاشر مراراً . واشتدت المعارضة .

ولعل من عزلهم ولزى أو أدبهم هم الذين اعتصموا بآذان التاريخ ، ونقلوا آثامه كما هى بلا غفران ، إلا أن أحداً لم ينازع فى مقدرته ، أو انصرافه فى مثابرة لكثير من مهامه . وقال جيوستنيانى لعضو الشيوخ من البندقية المعتز بنفسه « إنه ينجز من العمل قدر ما يشغل كل القضاة وموظفى المكاتب والمجالس فى البندقية ، فى المحاكم المدنية والجنائية على الســواء ، وهو يدير كذلك كل شئون الدولة مهما كانت طبيعتها (٢١) » .

وكان محبوباً من الفقراء ، مكروها من الأقوياء بسبب عدم تحيزه فى تطبيق العدالة . وفتح بلاطه لكل من يشكون من الاضطهاد ، ولا تكاد توجد سابقة لهذا فى التاريخ الانجليزى بعد الفرد . وكان ينزل العقاب بالجانى الأثيم ، مهما كان رفيع القدر (٢٢) ، دون خوف ولا وجل . وكان كريماً مع العلماء والفنانين وبدأ إصلاحاً دينياً بإحلال كليات محل أديار عديدة . وكان بصدد القيام بإصلاح مثير فى التعليم الإنجليزى عندما تآمر ضده كل الأعداء الذين خلقهم اندفاعه فى أعماله وقصر نظر كبير رائد ، فتآمروا بخلق قصة خيالية ماكية لتدبير خطة لسقوطه

٣ ـ ولزى والكنيسة

وأدرك المساوئ التى لا تزال باقية فى حياة رجال الدين فى انجلترا ضرب لها مثلا عظيما : أساقفة غائبين ورجال دين متعلقين بالدنيا ،

ورهباناً كسالى ، وقساوسة وقعوا فى شرك الأبوة . وكانت الدولة التى طالما دعت إلى إصلاح الكنيسة ، مسئولة إلى حـــد ما عن الشرور ، لأن الملوك كانوا يعينون الأساقفة ، وكان بعض الأساقفة من أمثال مورتون ، وواهرام وفيشر رجالا على خلق رفيع ، ذوى مقدرة عظيمة ، وكان كثير من الآخرين منغمسين جداً فيما تتيحه لهم الأسقفية من حياة وادعة ، فلم يســـتطيعوا أن يدربوا أتباعهم من رجال الدين على الكفاءة من الناحية الروحية ، وكذلك على المثابرة فى تدبير المال . وربما كانت أخـــلاقيات الجنس عند القساوسة أفضل مما هى عند زملائهم فى ألمانيا ، ولكن لم يكن ثمة مفر من وجود حالات من التسرى بين رجال الدين ، ومن الزنا والسكر والجريمة فى الأبرشيات البالغ عددها ٨,٠٠٠ فى انجلترا — وهى حالات — كثيرة دفعت كبير الأساقفة مورتون إلى أن يقول : (١٤٨٦) « إن ما يقترن بحياتهم من فضائح يعرض للخطر استقرار نظامهم[٢٣] » . وأبلغ رتشارد فوكس ، حوالى عام ١٥١٩ ، ولزى بأن رجال الدين فى أسقفية ونشستر كانوا قد تردوا إلى هاوية كبيرة من الفسق والفساد ، إلى حد أنه يئس من أن يشهد فى حياته أية محاولة لإصلاح دينى[٢٤] . وارتاب القساوسة بالأبرشيات فى أن ترقياتهم تتوقف على مقدار مقتنياتهم ، فأخذوا يغتصبون ضرائب العشور أكثر مما فعلوا فى أى وقت مضى . وكان البعض يستولى كل عام على عشر دجاج الفلاح وإنتاجه من البيض واللبن والجبن والفاكهة ، بل حتى من كل الأجور التى كانت تدفع لمعاونته ، وكل إنسان لا يترك فى وصيته ميراثاً للكنيســـة يتعرض لخطر عظيم بحرمانه من الدفن طبقاً للطقوس المسيحية مع ما يترتب على ذلك من نتائج متوقعة مروعة إلى حد لا يمكن التفكر فيها . وبعبارة موجزة فرض رجال الدين مكوساً لتمويل مصالحهم فى إصرار مثل الدولة الحديثة . وما أن حل عام ١٥٠٠ حتى كانت الكنيسة تملك ، وفقاً لتقدير كاثوليكى محافظ ، حـــوالى خمس

الأملاك بأسرها فى إنجلترا(٢٥) . وحسد النبلاء هناك كما فى ألمانيا رجال الدين على هذه الثروة وتلهفوا على استعادة الأراضى والدخول التى تنازل عنها لله أسلافهم الأتقياء أو الخائفون .

وأجمل دين كوليه حالة رجال الدين العلمانيين مع مبالغة واضحة فى خطاب وجهه إلى جمعية رجال الكنائس عام ١٥١٢ فقال : « أود أخيراً وأنا عالم بشهرتكم ومهنتكم ، أن تفكروا فى إصلاح أمور الكهنوت لأنه لم يحدث من قبل أن كان الأمر محتوماً كما هو الآن . . . . لأن الكنيسة — زوجة المسيح — التى تمنى ألا تشوبها شائبة أو تدب فيها الشيخوخة قد أصبحت دنسة مشوهة ، وكما يقول أشعياء : « كيف صارت القرية الأمينة زانية »(*) . وكما يقول أرميا : أما أنت فقد زنيت بأصحاب كثيرين(**) ». وقد حملت بكثير من بذور الظلم وهى تنجب كل يوم أعظم الذرية دنساً . ولم يشوه شىء وجه الكنيسة مثل ما شوهته المعيشة العلمانية والدنيوية لرجال الدين . . . أى لهفة وجوع يشيعان فى هذه الأيام بين رجال الدين بعد الشرف والوقار . وأى سباق تنقطع فيه الأنفاس من صدقة إلى صدقة ومن منفعة أقل إلى منفعة أكبر .

ألم تغرق الشهوة إلى الجسد ، ألم تغرق هذه الرذيلة الكنيسة بالفيضان . . ولهذا فليس هناك ما يسعى إليه فى حرص الجانب الأكبر من القساوسة أكثر مما يهيئ لهم اللذة الحسية ؟ إنهم لينصرفون إلى المآدب والولائم . . ويقفون حياتهم وينصرفون إلى القنص والصيد بالصقور ، وهم غارقون فى مباهج هذه الحياة الدنيا . .

وقد تملك الجشع أيضاً . . : قلوب كل القسس . : . إلى حد أننا اليوم

(*) العهد القديم : سفر أشعياء : الاصحاح الأول ، آية ٢١
(**) » » : سفر أرميا : الإصحاح الثالث ، آية ١

لا نرى شيئاً سوى ما يخيله لنا أنه كفيل بأن يعود علينا بمغنم ، ونحن نعانى فى هذه الأيام من الهراطقة — وهم رجال يتصفون بحماقة عجيبة ، إلا أن هرطقتهم ليست وبائية خبيثة بالنسبة لنا وللناس مثل حياة رجال الدين الفاسدين الغاوين . ولا بد أن يبدأ الإصلاح الدينى بكم(٢٦) .

وصاح نائب الأسقف مرة أخرى وهو يتميز غيظاً : « أيها القساوسة .. يا طائفة القسس . . . أواه ! إن الضلال المقيت الذى يسدر فيه هؤلاء القساوسة التعساء ، الذين يضم منهم عصرنا عدداً كبيراً لا يخشون الاندفاع من أحضان بغى دنسة إلى حرم الكنيسة ، وإلى مذبح المسيح ، وإلى أسرار العشاء الربانى(٢٧) .

بل إن رجال الدين النظاميين أو الرهبانيين تعرضوا لاستنكار شديد ، فقد اتهم كبير الأساقفة مورتون عام ١٤٨٩ الراهب وليام من دير سانت ألباتز بـ « الاتجار فى المقدسات والرتب والوظائف الدينية والربا والاختلاس والعيش علنا وباستمرار مع العاهرات والعشيقات داخل أرباض الدير وخارجه » واتهم الرهبان بأنهم يحيون حياة داعرة . . . . كلا بل يدنسون الأماكن المقدسة ، حتى كنائس الرب بالذات بمضاجعة الراهبات الممقوتة » . ويحاون ديراً ثانوياً مجاوراً إلى « ماخور عام »(٢٨) .

وترسم سجلات الجولات التفتيشية الأسقفية صورة أقل اكفهراراً . فمن بين اثنين وأربعين ديراً تم التفتيش عليها بين عامى ١٥١٧ و ١٥٣٠ وجد خمسة عشر ديراً لم تقترف فيها خطيئة كبيرة ، وفى معظم الأديار الأخرى كانت جرائم التعدى على النظام أكثر منها على العفة(٢٩). وكانت بعض الأديار لا تزال تمارس نظام الصلاة فى القرون الوسطى والإقبال على العلم والضيافة والبر وتعليم الشباب . واستغل بعضها السذاجة وجمعت النقود من العامة لمخلفات وهمية نسبوا إليها شفاء معجزاً من الأمراض ، وشكا أساقفة

من « الأحذية المنتنة والأمشاط القذرة . . والزنارات الرثة وخصلات الشعر والخرق القذرة المقررة والموصى بها للجهلة من الناس . باعتبارها مخلفات صحيحة لنساء أو رجال مقدسين(٣٠).

وعلى الجملة فإن الأديار الستمائة فى إنجلترا أظهرت ، طبقا لتقدير آخر مؤرخ كاثوليكى ، سوء سلوك على نطاق واسع وكسلا متلافا وإهمالا يكلف غاليا فى رعاية أملاك الكنيسة(٣١).

وفى عام ١٥٢٠ كان فى انجلترا نحو ١٣٠ ديراً للراهبات . منها أربعة فقط تضم ما يزيد على ثلاثين نزيلة(٣٢). وألغى الأساقفة ثمانية أديار ، وقال الأسقف فى إحدى الحالات بسبب « الأخلاق الداعرة لنساء البيت وتبذلهن بسبب مجاورتهن لجامعة كمبردج(٣٣) » . وتمت ثلاث وثلاثون جولة تفتيشية لواحد وعشرين ديراً للراهبات فى أبرشية لنكولن وقدمت عنها تقارير من بينها ستة عشر تقريراً مشجعا ، وأربعة عشر تقريرا تضمنت ملاحظات عن الافتقار إلى النظام أو الأخلاق وتقريران تحدثا عن راهبات كن يعشن فى الخنا ، وتقرير وجد راهبة حاملا من قسيس(٣٤). وكانت مثل هذه الانحرافات عن القواعد الصارمة تعد طبيعية فى المناخ الأخلاقى السائد فى تلك العصور ، ولعل الخدمات الكريمة فى التعليم والبر كانت ترجحها .

وكان رجال الدين لا يتمتعون بالشعبية . وكتب يوستاس شابويس السفير الكاثوليكى لشارل الخامس فى إنجلترا إلى مولاه عام ١٥٢٩ فقال : « إن كل الناس يكرهون القساوسة »(٣٥) . ونقد كثير من الناس ، من المتشبثين بعقيدة المحافظين تماما بقسوة الضرائب التى فرضها رجال الدين وتبذير الأساقفة وثراء الرهبان وكسلهم . وعندما اتهم كاتب سر أسقف لندن بقتل هرطيق (١٥١٤) توسل الأسقف إلى ولزى أن يمنع المحاكمة أمام محلفين مدنيين « لأنى واثق أن كاتب سرى لو حوكم أمام أى اثنى عشر

رجلا فى لندن فإنهم سوف ينحازون فى حقد إلى صف الهرطيق إلى حد أنهم سوف يلبذون كاتبي ويدينونه على الرغم من أنه برىء مثل هابيل »(٣٦).

وأخذت الهرطقة تشتد مرة أخرى . وفى عام ١٥٠٦ اتهم خمسة وأربعون رجـــلا بالهرطقة أمام أسقف لنكولن وتراجع ثلاثة وأربعون عما قالوا ، وأحرق اثنان . وفى عام ١٥١٠ حاكم أسقف لندن أربعين هرطيقا وأحرق اثنين ، وفى عام ١٥٢١ حاكم خمسة وأربعين وأحرق خمسة ، وتورد السجلات قائمة تضم ٣٤٢ محاكمة مثل هذه فى خلال خمسة عشر عاماً(٣٧) .

ومما كان يعد بين الهرطقات الجدل حول القربان المقدس وهل يظل يقدم من الخبز فحسب ، وأن القساوسة لا حول لهم ولا قوة أكثر من الآحاد الآخرين من الناس فى التكريس أو الحل ، وأن القرابين المقدسة ليست ضرورية للحصول على الخلاص ، وأن رحلات الحج إلى المزارات المقدسة والصلاة من أجل الموتى لا قيمة لها ، وأن الصلوات يجب أن توجه لله وحده ، وأن فى وسع الإنسان أن يظفر بالنجاة بالإيمان وحده ، بغض النظر عما يقدم من صالح الأعمال ، وأن المسيحى المخلص فوق كل القوانين ما عدا شريعة المسيح ، وأن الكتاب المقدس والكنيسة يجب أن يكونا القاعدة الوحيدة التى يحتكم إليها فى العقيدة ، وأن كل الرجال يجب أن يتزوجوا ، وأن الرهبان والراهبات يجب أن يجحدوا أقسامهم بالتزام العفة .

وكانت بعض هذه الهرطقات أصداء لمذهب لولارد ، وكانت بعضها انعكاسات لنفخات من بوق لوثر .

وفى أوائل عام ١٢٥١ كان الثائرون الشبان فى اكسفورد يتلقفون فى لهفة أنباء الثورة الدينية فى ألمانيا ، وآوت كامبردج فى أعوام ١٥٢١ — ٢٥ اثنى عشر من زعماء هراطقة المستقبل ، وليام تيندال وميلز كوفردال وهيولاتيمر وتوماس بلنى وادوارد فوكس ونيكولاس ردلى وتوماس

كرانمر . . . لقد هاجر كثير منهم : وهم يتوقعون الاضطهاد ، إلى القارة ، وطبعوا كراسات دينية مناهضة للكاثوليكية وبعثوا بها سرا إلى إنجلترا .

وأصدر هنرى الثامن عام ١٥٢١ كتابه المشهور « قضية المقدسات السبعة ضد مارتن لوثر » ، ولعله أصدره كرادع لهذه الحركة أو ربما لإظهار سعة علمه فى اللاهوت ، واعتقد الكثيرون أن ولزى هو المؤلف الخفى، ولعل ولزى هو الذى اقترح تأليف الكتاب ، وصاحب ما ورد فيه من أفكار رئيسية كجزء من دبلوماسيته فى روما ، بيد أن إرازموس ادعى أن الملك قد فكر فى الرسالة من أولها لآخرها وألفها ، ويميل الحكم الآن إلى هذا الرأى . وهذا الكتاب له سمات المبتدئ ، وهو لا يكاد يحاول تقديم رد عقلى يدحض به الآراء الأخرى ، ولكنه يعتمد على فقرات منقولة من الكتاب المقدس والروايات الكنسية والتعسف الشديد . وكتب الثائر المنتظر ضد البابوية يقول : « أى ثعبان سام يصل إلى درجة من يصف سلطة البابا بأنها مستبدة ؟ . . . وأى جارحة من جوارح الشيطان تحاول أن تمزق أعضاء المسيح وتفصلها عن رأسها » . ما من عقوبة يمكن أن تكون جسيمة عندما توقع على من يعصى القس الأكبر والقاضى الأعلى على الأرض « لأن الكنيسة بأسرها ليست رعية للمسيح فحسب . . . بل لكاهن المسيح الوحيد، بابا روما »(٣٨). « وكان هنرى يغبط ملك فرنسا على ألقاب التشريف التى تسبغها الكنيسة عليه مثل : « أكثر المسيحيين مسيحية » وفرديناند وايزابلا على لقب العاهلين الكاثوليكيين . وعندما قدم وكيله وقتذاك الكتاب إلى ليو العاشر طلب منه أن يمنح هنرى وحلفاءه لقب — حامى العقيدة — ووافق ليو ووضع من استهل الإصلاح الدينى فى انجلترا الكلمات على سكنه .

وتمهل لوثر فى الإجابة . ورد عام ١٥٢٥ ردا فريدا على ذلك « الحمار الأحمق » ، « وذلك المجنـــون الهائج . . . ملك الأكاذيب ، الملك

هينز ، ملك انجلترا يغضب الله . . . ولما كانت تلك الدودة اللعينة العفنة قد افترت كذبا بشر مبيت على مليكى فى السماء فإنه يحق لى أن ألطخ هذا الملك الإنجليزى بقذره »(٣٩) « ولم يتعود هنرى على هذا الرشاش فاشتكى إلى أمير سكسونيا المختار الذى قال له بأدب جم ألا يتطفل على الأسود ، ولم يصفح الملك قط عن لوثر على الرغم من اعتذاره فيما بعد ، ونبذ البروتستانت الألمان حتى عندما تمرد تماما على البابوية .

وكان أعظم رد مفحم للوثر هو نفوذه فى إنجلترا ففى ذلك العام نفسه ١٥٢٥ نسمع عن « جمعية الإخوان المسيحيين » . فى لندن التى انطلق وكلاؤها المأجورون يوزعون كراسات دينيـــة لوثرية وهرطقية أخرى وأناجيل بالإنجليزية كلها أو بعضها .

وفى عام ١٤٠٨ انزعج كبير الأساقفة أروندل بسبب توزيع نسخة الكتاب المقدس التى ترجمها ويكلف ، فمنع القيام بأى ترجمة له باللغة الوطنية دون الحصول على موافقة من الأسقف ، على أساس أن أى نسخة تترجم بدون ترخيص قد يحدث فيها تحريف للفقرات الصعبة ، أو تلون التعبير لتأييد هرطقة . ولم يشجع كثير من رجال الدين قراءة الكتاب المقدس بأى صيغة ، واحتجوا بأن الترجمة الصحيحة تستلزم معرفة خاصة ، وأن المنتخبات من الكتاب المقدس كانت تستخدم لإثارة الفتنة(٤٠). ولم تبد الكنيسة أى اعتراض رسمى على الترجمات السابقة لويكلف بيد أن هذا الإذن المفهوم ضمنا لم تكن له أهمية لأن كل النسخ الإنجليزية قبل عام ١٥٢٦ كانت مخطوطة(٤١).

ومن ثم تأتى الأهمية الزمنية للعهد الجديد الإنجليزى الذى نشره تندال عام ١٥٢٥ — ٢٦ . وكان قد فكر مبكراً فى أيام دراسته فى ترجمة الكتاب المقدس ، لا من النسخة اللاتينية له كما فعل ويكلف ، بل من الأصلين

العبرى واليونانى . وعندما لامه كاثوليكى غيور وقال له : « خير لك أن تعيش بلا شريعة الرب « أى الكتاب المقدس من أن تعيش بشريعة البابا » ، رد تندال بقوله : « إذا مد الله فى عمرى فلن تمضى بضع سنين حتى أجعل الصبى الذى يدفع المحراث يعرف من الكتاب المقدس أكثر مما تعرف أنت[٤٢] » . ومنحه أحد معاونى بلدية لندن الفراش والمأوى لمدة ستة شهور عكف الشاب أثناءها على العمل . وذهب تندال عام ١٥٢٤ إلى فتنبرج واستمر فى العمل تحت إرشاد لوثر . وبدأ فى كولونيا يطبع نسخة العهد الجديد المترجمة من النص اليونانى كما حققه ارازموس . وأثار وكيل إنجليزى السلطات عليه ، ففر تندال من كولونيا الكاثوليكية إلى ورمز البروتستانتية ، وهناك طبع ٦,٠٠٠ نسخة ، أضاف لكل منها مجلدا منفصلا ضمنه تعليقات ومقدمات عدوانية ، اعتمد فيها على مقدمات إرازموس ولوثر . وهربت كل هـــذه النسخ إلى انجلترا وكانت بمثابة الوقود ، الذى أشعل نار البروتستانتية الأولى ، وزعم كوثبرت تونستال ، أسقف لندن أن هناك أخطاءاً شنيعة فى الترجمة ، وتحاملا مغرضاً فى التعليقات ، وهرطقات فى المقدمات ، وحاول أن يمنع تداول الطبعة بشراء كل النسخ المكتشـــفة وإحراقها علناً فى ميدان سانت بول كروس ، بيد أن نسخاً جديدة ظلت ترد من القارة ، وعاق مور على ذلك بقوله إن تونستال كان يمول مطبعة تندال . وكتب مور نفسه حواراً مستفيضاً (١٥٢٨) ، انتقد فيه النسخة الجديدة فرد عليه تندال ، ورد مور على الرد فى « تفنيد » يتألف من ٥٧٨ صفحة من القطع الكبير . ورأى الملك أن يخمد الفتنة بمنع قراءة الكتاب المقدس بالإنجليزية وتداوله ، إلى أن تصدر ترجمة معتمدة من ذوى الشأن (١٥٣٠) ، وفى غضون ذلك حرمت الحكومة كل طبع أو بيع أواستيراد أو حيازة للمؤلفات الهرطقية .

وبعث ولزى بأوامره بالقبض على تندال ، إلا أن فيليب ، حاكم لاندجراف هس أسبغ حمايته على المؤلف ، وتابع فى ماربورج ترجمته للأسفار الخمسة (١٥٣٠) . وترجم الجانب الأكبر من العهد القديم إلى الإنجليزية فى أناة ، بجهده الخاص أو تحت إشرافه . غير أنه سقط فى أيدى الموظفين الإمبراطوريين فى لحظة لم يتخذ فيها احتياطاته وسجن لمدة ستة عشر شهراً فى فلفورد (قرب بروكسل) ، وأعدم فى المحرقة (١٥٣٦) على الرغم من تشفع توماس كروميل وزير هنرى الثامن . وتحدثنا الرواية أن آخر كلماته كانت : « رباه ، افتح عينى ملك انجلترا (٤٣) » وقد عاش ما يكفى لإتمام رسالته ، فالصبى الخارث يستطيع الآن أن يسمع المبشرين الإنجيليين الآن وهم يروون له بإنجليزية ثابتة واضحة قوية قصة المسيح الملهمة . وعندما ظهرت النسخة التاريخية المعتمدة (١٦١١) كان ٩٠ فى المائة من أعظم ما كتب فى الأدب الكلاسى الإنجليزى وأشدها تأثيراً كانت لتندال بلا تغيير (٤٤) .

وكان موقف ولزى تجاه هذا الإصلاح الدينى الإنجليزى الوليد يتسم باللين ، كما يمكن أن يتوقع من رجل على رأس الكنيسة والحكومة على السواء . فاستأجر شرطة سرية لكشف الهرطقة ، وفحص الأدب المشكوك فيه والقبض على الهراطقة . غير أنه سعى إلى إغراء هؤلاء بأن يسكتوهم لا أن يعاقبوهم ، ولم يصدر أوامره قط بإرسال هرطيق إلى المحرقة . وفى عام ١٥٢٨ سجن ثلاثة من طلبة جامعة أكسفورد بتهمة الهرطقة ، وترك أسقف لندن واحداً منهم يموت فى الحبس وأنكر آخر ما قاله وأطلق سراحه ، أما الثالث فأخذه ولزى ووضعه تحت رعايته وسمح له بالفرار (٤٥) . وعندما ندد هيو لاتيمر ، أفصح المصلحين المدينيين الأوائل فى القرن السادس عشر بانجلترا ، بفساد رجال الدين وطلب أسقف ايلى من ولزى منعه ، منح ولزى لاتيمر ترخيصاً بالوعظ فى أى كنيسة بالبلاد .

ورسم الكاردينال خطة ذكية لإصلاح الكنيسة . وفى راوية لأسقف برنت أنه كان يحتقر رجال الدين وبخاصة . . . الرهبان الذين لا يؤدون خدمة للكنيسة أو الدولة ، ولكنهم كانوا بسبب حياتهم الفاضحة وصمة عار فى جبين الكنيسة وحملا على الدولة . ومن ثم قرر أن يوقف عدداً منهم ويحولهم إلى مؤسسة أخرى(٤٦) » . ولم يكن إغلاق دير لا يؤدى وظيفته على ما يرام بالأمر الذى لم يسمع به من قبل ، فقد حدث فى كثير من الحالات قبل ولزى بأمر صدر من الكنيسة . وبدأ (١٥١٩) بإصدار تشريعات لإصلاح القوانين الكلسية التى وضعها سانت أوغسطين » ولو أن هذه القواعد اتبعت لأصبحت القوانين الكنسية نموذجية للغاية . وفوض كاتم سره توماس كروميل فى زيارة الأديار بنفسه أو بواسطة وكلاء له وأن يقدم له تقارير عن الأحوال الموجودة ، وأتاحت هذه الجولات التفتيشية مهارة متمرسة لكروميل فى تنفيذ أوامر هنرى فيما بعد بتقصى الحياة فى الأديار بانجلترا بشدة . وارتفعت الأصوات بالشكوى من قسوة هؤلاء الوكلاء ومن تلقيهم « الهدايا » أو أخذها كرها ، وعن مشاطرتهما كروميل والكاردينال(٤٧) فى هذه الهدايا . وحصل ولزى عام ١٥٢٤ على إذن من البابا كليمنت السابع بإغلاق الأديار التى تضم أقل من سبعة نزلاء واتفاق دخول هذه الممتلكات على إنشاء كليات . وشعر بالسعادة عندما مكنته هذه الأموال من فتح كلية فى موطنه ابسويتش وأخرى فى أكسفورد وراوده الأمل فى أن يستمر على هذا المنوال فيغلق المزيد من الأديار عاماً بعد عام ويستبدل بها كليات(٤٨). إلا أن نياته الطيبة ضاعت فى غمرات السياسة ، وكانت أعظم نتيجة لإصلاحاته المتعلقة بالأديار هى أنه زود هنرى بسابقة جديرة بالإجلال لخطة أبعد مدى ، وتدر ربحاً أكثر .

وفى غضون ذلك كانت سياسة الكاردينال الخارجية قد أدت إلى نتيجة تدعو إلى الأسى . ولعله سمح لانجلترا بالانضمام إلى شارل فى حربه مع فرنسا (١٥٢٢) لأنه كان يسعى إلى الحصول على تأييد الإمبراطور لترشيحه للبابوية (١٥٢١) . ومنيت الحملات الإنجليزية بالفشل وتكلفت أموالا طائلة ، وأزهقت فيها أرواح كثيرة .

ودعا ولزى (١٥٢٣) أول مجلس نيابى فى سبع سنوات ، لتمويل الجهود الجديدة ، وصدمه بطلب إعانة مالية لم يسبق لها مثيل قدرها ٨٠٠,٠٠٥ جنيه — أى خمس ما يملكه كل علمانى . واحتج أعضاء مجلس العموم ثم صوتوا على السبع فقط ، واحتج رجال الدين بيد أنهم سلموا دخل نصف عام من كل الصدقات . وعندما وصلت الأنباء بأن جيش شارل قد تغلب على الفرنسيين فى بافيا (١٥٢٥) وأخذ فرانسيس أسيراً . رأى هنرى وولزى أن من الحكمة أن يسهما فى تقطيع أوصال فرنسا الذى يوشك أن يحدث . ووضعت خطة للقيام بغزو جديد واقتضى الأمر تدبير المزيد من الأموال وخاطر ولزى بآخر ما تبقى له من شعبية ، بأن طلب من كل الإنجليز الذين يتجاوز دخلهم ٥٠ جنيهاً (٥٠٠ دولار ؟) أن يسهموا بسدس أموالهم فى « هبة ودية » ، لمتابعة الحرب والوصول بها إلى غاية مجيدة ، « ودعونا نتبرع وديا حتى نمنع شارل من ابتلاع فرنسا بأسرها » .

وقوبل الطلب بمقاومة انتشرت على نطاق واسع اضطر ولزى إلى أن يتحول إلى وضع برنامج للسلام . ووقعت معاهدة للدفاع المتبادل مع فرنسا كمحاولة أخرى لاستعادة توازن القوى . . ولكن جنود الإمبراطور استولوا عام ١٥٢٧ على روما وأسروا البابا وبدا أن شارل

قد أصبح وقتذاك سيد القارة الذى لا يقهر ، وقضى على سياسة وازى القائمة على الصد والتوازن . وانضمت إنجلترا إلى فرنسا عام ١٥٢٨ فى الحرب ضد شارل .

وكان شارل ابن أخى كاثرين الأراجونية التى كان هنرى شديد الرغبة فى الطلاق منها ، وكان كليمنت السابع ، الذى يستطيع أن يمنحه لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ، أسيرا لشارل بشخصه وسياسته .

٤ ـ طلاق الملك

جاءت كاترين الأراجونية ، ابنة فرديناند وإيزابلا إلى إنجلترا عام ١٥٠١ ، وكانت فى السادسة عشرة من عمرها وتزوجت (١٤ نوفمبر) من أرثر البالغ من العمر خمسة عشر عاما ، وهو أكبر أبناء هنرى السابع . ومات أرثر فى اليوم الثانى من إبريل عام ١٥٠٢ وكان المفروض بوجه عام أن الزوج قد دخل بزوجته . ومن ثم أرسل السفير الأسبانى قياما بالواجب « أدلّة » إلى فرديناند ولم ينتقل لقب أرثر ، أمير ويلز رسميا إلى شقيقه الأصغر هنرى إلا بعد مرور شهرين على وفاة أرثر(٤٩). ولكن كاثرين أنكرت أن زوجها دخل بها . وقد أحضرت معها صداقا قدره ٢٠٠ر٠٠٠ دوكات (٥٠٠ر٠٠٠ر٠٠٠ دولار ؟) وكره هنرى السابع أن يدع كاثرين تعود إلى إسبانيا ومعها هذه الدوكات ، وتلهف على أن يجدد مصاهرته لفرديناند القـــوى فاقترح أن تتزوج كاثرين من الأمير هنرى على الرغم من أنها كانت تكبر الصبى بست سنوات . وكانت هناك آية فى الكتاب المقدس (سفر اللاويين اصحاح ٢٠ : آية ٢١) تحرم هذا الزواج :

« وإذا أخذ رجل امرأة أخيه فذلك نجاسة . . . يكونان عقيمين » ومهما يكن من أمر فإن هناك آية أخرى تنص على خلاف ذلك : « إذا سكن إخوة معا ومات واحد منهم وليس له ابن . . . . . أخو زوجها يدخل عليها ويتخذها لنفسه زوجة » . (سفر التثنية : اصحاح ٢٥ آية ٥) . واستنكر كبير الأساقفة وارهام الزواج المقترح ودافع عنه الأسقف فوكس الونشسترى إذا أمكن الحصول على محلل من البابا للمانع من المصاهرة . وطلب هنرى السابع الحصول على المحلل . فمنحه له البابا يوليوس (١٥٠٣) . وجادل بعض خبراء القانون الكنسي فى حق البابا فى التحلل من مبدأ نص عليه الكتاب المقدس(٥٠) وأكد البعض حقه فى هذا ، أما يوليوس نفسه فقد راودته بعض الشكوك(٥١). وأعلنت رسميا الخطبة ، وهى فى الواقع زواج شرعى — عام ١٥٠٣ ، ولما كان العريس لا يزال فى الثانية عشرة من عمره فحسب فقد أجلت المعاشرة . وفى عام ١٥٠٥ طلب الأمير هنرى إعلان بطلان الزواج ، لأن أباه أكرهه(٥٢)عليه ولكنه أقنع بصحة الزواج على أساس أنه فى مصلحة إنجلترا .

وفى عام ١٥٠٩ ، وبعد ستة أسابيع من ارتقائه العرش احتفل علنا بالزواج . وبعد سبعة شهور (٣١ يناير سنة ١٥١٠) أنجبت كاترين أول طفل لها ، وقد مات عند الولادة . وأنجبت بعد ذلك بعام ابنا وابتهج هنرى بولادة وريث ذكر يصل به سلسلة نسب تيودور ، ولكن الطفل مات بعد بضعة أسابيع وسقط ابن ثان وثالث بعد الولادة مباشرة (١٥١٣ و ١٥١٤) . وبدأ هنرى يفكر فى الطلاق . أو بعبارة أدق فى إعلان بطلان الزواج باعتباره غير صحيح . وحاولت كاترين المسكينة مرة أخرى وفى عام ١٥١٦ أنجبت طفلة قدر لها أن تكون الملكة مارى . وأذعن هنرى وقال لنفسه : « إذا كانت هذه المرة ابنة فإن الأبناء سوف يجيئون بعدها(٥٣)،

بفضل الله ومنه . وفى عام ١٥١٨ أنجبت كاترين ابنا آخر ولد ميتا . واشتدت خيبة أمل الملك والبلاد لأن مارى البالغة من العمر عامين ، كانت قد خطبت إلى ولى عهد فرنسا ، وإذا لم يرزق هنرى بولد فإن مارى سوف ترث العرش الإنجليزى ، وعندما يصبح زوجها ملكا على فرنسا فإنه سيكون فى الواقع ملكا على إنجلترا أيضا ، وتصبح بريطانيا مقاطعة تابعة لفرنسا ، وكان دوقات نورفولك وبكنجهام تداعبهم الآمال فى أن يزيحوا مارى ويضمنوا التاج لأنفسهم ، وأطلق بكنجهام لسانه فاتهم بخيانة البلاد وقطع رأسه (١٥٢١) ، وعبر هنرى عن خوفه من أن يكون حرمانه من إنجاب ولد عقابا من الله لأنه استخدم محللا بابويا(٥٤) من وصية واردة فى الكتاب المقدس . وأقسم ليقودن حملة صليبية ضد الأتراك إذا أنجبت له الملكة ولدا . غير أن كاترين لم تحمل بعد ذلك . وما أن حل عام ١٥٢٥ حتى تخلى عن كل أمل فى الحصول على ذرية أخرى منها .

وكان هنرى منذ أمد بعيدقد فقد الميل إليها باعتبارها أنثى . وكان وقتذاك فى الرابعة والثلاثين ، أى فى عنفوان الرجولة الفتية ، وكانت فى الأربعين وتبدو أكبر من سنها . ولم تكن قط مغرية ، وألحق أن مرضها المتكرر، أو ما صادفها من سوء الحظ، قد شوه جسدها وأضفى على روحها قتامة . وكانت تبز النساء بثقافتها ودماثتها ولكن الأزواج قلما يرون أن التضلع فى العلم خلة محمودة فى الزوجة . وكانت زوجة صالحة مخلصة ، تحب زوجها حبا لا يفوقه إلا حبها لإسبانيا ؛ وكانت ترى نفسها باعتبارها — وكانت كذلك لفترة ما — سفيرة لإسبانيا وكانت ترى أن إنجلترا يجب أن تقف دائما فى صف فرديناند أو شارل ؛ وفى حوالى عام ١٥١٨ اتخذ هنرى أول حظية له عرفها بعد الزواج وهى اليزابيث بلاونت شقيقة مونتجوى صديق ارازموس ؛ وأنجبت له ابنا عام ١٥١٩ وأنعم هنرى على الصبى بلقب

دوق رتشموند وسومرست ، وفكر فى أن يقف وراثة العرش عليه .
وفى عام ١٥٢٤ اتخذ حظية أخرى ، هى مارى بولين(٥٥) ، والحق أن سير جورج ثروكمورتون اتهمه فى وجهه بالزنا مع أم مارى أيضاً(٥٦) .
وكان هناك قانون غير مكتوب فى ذلك العهـــد ينص على أن الملك إذا ما تزوج لأسباب تتعلق بمصلحة الدولة ولم يكن ذلك باختياره ، فإن له الحق فى أن ينشد خارج الزواج الغرام الذى فقده فى المخدع الشرعى .

وفى عام ١٥٢٧ أو قبله حول هنرى فتنته إلى آن شقيقة مارى . وكان والدهما سير توماس بولين ، تاجرا دبلوماسيا حظى منذ وقت طويل بعطف الملك ، أما أمهما فكانت من آل هوارد ، وهى ابنة الدوق نورفولك . وأرسلت آن إلى باريس لإتمام دراستها فيها ، وهناك عيلت وصيفة للملكة كلود ثم لمرجريت دى نافار ، واعلها تشربت منها بعض النوازع البروتستانتية . وكان فى وسع هنرى أن يراها فتاة طروبا فى الثالثة عشرة من عمرها فى ميدان كاوث أف جولد ، وعندما عادت إلى إنجلترا وهى فى الخامسة عشرة من عمرها (١٥٢٢) أصبحت وصيفة للملكة كاترين . ولم تكن رائعة الجمال ، وكانت قصيرة القامة لها بشرة قاتمة وفم واسع ورقبة طويلة ، ولكنها خلبت لب هنرى وآخرين غيره بعينيها السوداوين البراقتين وشعرها البنى المسترسل ورشاقتها وذكائها ومرحها . وكان لها بعض العشاق الموالين بها ، ومنهم توماس ويات الشاعر ، وهنرى برسى ، الذى أصبح فيما بعد لإيرل نور ثمبرلاند ، واتهمها أعداؤها فيما بعد بأنها كانت متزوجة فى السر من برسى قبل أن تضع أنظارها على الملك ، إلا أن الدليل لم يكن قاطعا(٥٧). ولا نعرف متى بدأ هنرى يطارحها الغرام وأقدم رسائل الحب الباقية التى كتبها لها ترجع فيما يرجح إلى يولية عام ١٥٢٧ .

ما هى العلاقة بين هذه القصة الغرامية والتماس هنرى الحكم ببطلان

زواجه ؟ مما لا جدال فيه أنه قد فكر فى هذا الأمر فى وقت يرجع إلى عام ١٥١٤ عندما كانت آن فتاة فى السابعة من عمرها . ويبدو أنه طرح الفكرة جانبا حتى عام ١٥٢٤ ، عند ما كف عن مباشرة علاقاته الزوجية مع كاترين ، وفقا لروايته(٥٨) . وأقدم إجراءات سجلت ببطلان الزواج اتخذت فى مارس عام ١٥٢٧ ، بعد تعرف هنرى بآن بوقت طويل ، وفى الوقت الذى حلت فيه محل شقيقتها فى أحضان الملك . والظاهر أن ولزى كان لا يعلم شيئاً عن أى نية للملك فى الزواج من آن عندما ذهب فى يوليو عام ١٥٢٧ إلى فرنسا لإعداد العدة للزواج بين هنرى ورينيه ، ابنة لويس الثانى عشر التى سرعان ما أثارت حركة بروتستانتيه فى إيطاليا . وأول إشارة لمـــا انتواه هنرى وردت فى خطاب أرسله يوم ١٦ أغسطس سنة ١٥٢٧ السفير الإسبانى إلى شارل الخامس يبلغه فيه أن هناك اعتقادا عاما فى لندن بأن الملك إذا حصل على « طلاق » فإنه سوف يتزوج « ابنة سير توماس بولين(٥٩) » ولم يكن هذا يعنى مارى بولين لأن هنرى وآن كانا يعيشان فى شقتين متجاورتين تحت نفس السقف فى جرينوتش(٦٠) عند حلول نهاية عام ١٥٢٧ . وقد نستنتج من هذا أن هنرى سارع بطلب بطلان الزواج على الرغم من أنه يصعب أن يقال إن السبب فى ذلك هو افتتانه بآن . وكان السبب الأساسى رغبته فى الحصول على ولد يمكن أن ينقل إليه العرش مع شىء من الثقة فى خلافة هادئة . وكانت إنجلترا بأسرها تشاطره ذلك الأمل . وتذكر الناس فى فزع السنوات العديدة (١٤٥٤ — ٨٥) التى نشبت فيها الحرب بين بيتى يورك ولانكاستر على التاج ، ولم يكن قد مضى على ظهور أسرة تيودور غير اثنين وأربعين عاما فى سنة ١٥٢٧ ، وكان حقها فى العرش مشكوكا فيه ، ولم يكن فى وسع أحد أن يصل حبل الأسرة الحاكمة دون منازع إلا ولد شرعى ينحدر مباشرة من صلب الملك ، ولو لم يلتق هنرى قط بآن بولين فإنه كان قميناً

بأن يرغب فى الحصول على طلاق وزوجة ولود بصورة مقبولة ؛ ولا شك أنه يستحق هذا .

واتفق ولزى مع الملك فى هذا الموضوع وأكد له أنه يمكن الحصول على قرار من البابا ببطلان الزواج ، وكانت سلطة البابا فى منح مثل هذا الانفصال أمر مقبول بوجه عام ، كإجراء حكيم لتلبية مثل هذه الضرورات الوطنية تماما ، ويمكن تقديم سوابق كثيرة . بيد أن تقدير الكاردينال المشغول لم يعمل حسابا لتطورين بغيضين : فهنرى لم يكن يريد ريليه بل كان يريد آن ، وبطلان الزواج سوف يصدر من بابا ، كان عند ما وصلته المشكلة ، أسيراً لإمبراطور ، كان لديه أكثر من سبب لمناصبة هنرى العداء . وربما كان شارل حريا بأن يعارض بطلان هـذا الزواج ما دامت عمته تقاومه ، وكان يعارض أكثر لو عقد زواج جديد ، كما دبر ولزى ، بربط إنجلترا بحلف قوى مع فرنسا . ولم يكن السبب الأولى للإصلاح الدينى الإنجليزى هو جمال آن بولين الصاعد ، بل الرفض العنيد الذى بدا من كاترين وشارل فى إدراك عدالة رغبة هنرى فى الحصول على ولد . واشتركت الملكة الكاثوليكية مع الإمبراطور الكاثوليكى والبابا الأسير فى انفصال إنجلترا عن الكنيسة . ولكن السبب النهائى للإصلاح الدينى الإنجليزى لم يكن طلب هنرى بطلان الزواج بقدر ما كان من ارتفاع شأن الملكية الإنجليزية وبلوغها درجة من القوة جعلتها قادرة على أن ترفض التسليم بسلطة البابا فى التدخل فى شئون إنجلترا ، وتحكمه فى مواردها .

وأكد هنرى أن رغبته العارمة فى الحصول على بطلان الزواج إنما دعا إليها جبرييل دى جرامون الذى أقبل إلى إنجلترا فى فبراير عام ١٥٢٧ لمناقشة الزواج المقترح بين الأميرة مارى والأسرة الملكية الفرنسية . فقـد أثار جرامون ، كما يروى هنرى ، سؤالاً عن شرعية بنوة مارى ،

على أساس أن زواج هنرى بكاترين قد يكون غير صحيح باعتباره مخالفة لأحد نواهى الكتاب المقدس ولا يستطيع البابا أن يمحوها . وظن البعض أن هنرى لفق القصة(٦١) ، ولكن ولزى رددها وأبلغت إلى الحكومة الفرنسية (٥٢٨) ، ولم ينكرها ، بقدر ما هو معروف جرامون ، وجاهد جرامون لإقناع كليمنت بأن طلب هنرى بطلان الزواج أمر عادل ، وأبلغ شارل سفيره فى إنجلترا (٢٩ يوليو سنة ١٥٢٧) أنه كان ينصح كليمنت برفض التماس هنرى .

وبينما كان ولزى فى فرنسا أبلغ على وجه التحديد بأن هنرى لا يرغب فى الزواج من رينيه بل يريد الزواج من آن . واستمر يعمل للحصول على البطلان ، ولكنه لم يخف اكتئابه بسبب اختيار هنرى : وتجاوز الملك حاجبه فى خريف عام ١٥٢٧ ، وبعث بكاتم سره وليام نايت لتقديم ملتمسين للبابا الأسير ، الأول يتضمن أن كليمنت ، إذ يتعرف على صحة زواج هنرى الذى تكتنفه الشكوك وافتقاره إلى ذرية من الذكور وكراهية كاترين للطلاق ، يجب أن يسمح لهنرى بالاحتفاظ بزوجتين . وأدرك الملك أمراً فى آخر لحظة أثنى نايت عن تقديم هذا الاقتراح ، وكانت جرأة هنرى قد خمدت ولا بد أنه ذهل ، عندما تلقى ، بعد ثلاث سنوات ، خطابا من جيوفانى كاسالى أحد وكلائه فى روما ، مؤرخا فى ١٨ سبتمبر سنة ١٥٣٠ يقول فيه : « منذ بضعة أيام اقترح على البابا سراً أن يأذن لجلالتك باتخاذ زوجتين(٦٢) » . وكان ملتمس هنرى الثانى لا يقل غرابة ؛ على البابا أن يمنحه تحللاً للزواج من امرأة كان للملك علاقات جنسية مع ختها(٦٣) . ووافق البابا على هذا بشرط أن يعلن بطلان الزواج بكاترين إلا أنه لم يكن على استعداد لإعلان بطلان هذا الزواج . وكان كليمنت لا يشى شارل فحسب بل كان ينفر من القاعدة التى تقضى بأن أحد

للبابوات للسابقين قد ارتكب خطأ جسيما بإعلان صحة الزواج . وتلقى فى نهاية عام ١٥٢٧ ملتمسا ثالثا — بأنه يجب أن يعين ولزى قاصداً رسوليا آخر لعقد محكمة فى إنجلترا تسمع الدليل وتحكم بصحة زواج هنرى بكاترين . وأذعن كليمنت (١٣ إبريل سنة ١٥٢٨) ، وعين الكاردينال كامبيجيو لعقد جلسة مع ولزى فى لندن ووعد — فى منشور بابوى لا يطلع عليه سوى ولزى وهنرى — أن يؤيد أى قرار يتخذه المندوبان البابويان(٦٤) . وربما كان لانضمام هنرى إلى فرانسيس (يناير سنة ١٥٢٨) فى إعلان الحرب على شارل وتعهدهما بتحرير البابا قد أثر فى إذعان البابا .

واحتج شارل وأرسل إلى كليمنت نسخة من وثيقة ادعى أنها وجدت فى المحفوظات الإسبانية ، وفيها أكد يوليوس الثانى صحة المحلل الذى اقترح هنرى وولزى بطلانه . وتعجل البابا ، وهو لا يدرى ما يفعل ولا يزال أسيراً لشارل ، فأرسل تعليمات إلى كامبيجو بألا ينطق بحكم قبل أن يحصل على تفويض صريح من الآن فصاعدا . . . فإذا ألحق بالإمبراطور ضرر كبير ، فإن كل أمل فى السلام العالمى يكون قد تبدد ولا تستطيع الكنيسة أن تنجو من الخراب التام لأنها تخضع خضوعا كاملا لسلطان أتباع الإمبراطور . . أجل بقدر الإمكان(٦٥)» .

وعند وصول كامبيجيو إلى إنجلترا (أكتوبر سنة ١٥٢٨) حاول أن يحصل على موافقة كاترين بالاعتزال فى دير للراهبات ، فوافقت بشرط أن يحلف هنرى أيمان الرهبان . ولكن لم تكن هناك أمور أبعد عن ذهن هنرى من الفقر والخضوع والعفة ، ومهما يكن من أمر فإنه اقترح أن يحلف هذه الأيمان إذا وعد البابا يحله منها عند الطلب ورفض كامبيجيو أن ينقل هذا الاقتراح إلى البابا وأبلغه بدلا من ذلك (فبراير سنة ١٥٢٩) بعزم الملك على الزواج من آن . وكتب يقول : « إن هذه العاطفة أمر خارق للعادة أنه لا يرى شيئاً ولا يفكر فى شىء سوى حبيبته آن ، إنه

لا يستطيع أن يستغنى عنها ساعة واحدة . وإنى لأشعر بالإشفاق عليه عندما أرى أن حياة الملك واستقرار وسقوط البلاد بأسرها تتوقف على هذه المسألة وحلها(٦٦)» .

وحدثت تغيرات فى الموقف الحربى جعلت البابا يتحول أكثر فأكثر ضد اقتراح هنرى . وفشل الجيش الفرنسى ، الذى كان هنرى قد ساعده بتمويله ، فى حملته الإيطالية ، وترك البابا فى حالة اعتماد كلى على الإمبراطور : وطردت فلورنسا حكامها من آل مديتشى — وكان كليمنت مخلصا لتلك العائلة مثله فى ذلك مثـــل شارل الذى كان مخلصا لآل هابسبورج .

وانتهزت (فينيسيا) البندقية فرصة عجز البابا لكى تنتزع رافنا من الولايات البابوية ، فمن كان وقتذاك يستطيع أن ينقذ البابوية سوى آسرها ؟ وقال كليمنت لقد استقر رأيى تماما على أن أصبح من أنصار النظام الإمبراطورى ، وسوف أعيش وأموت وأنا متمسك بهذا الرأى(٦٧) » . ووقع فى التاسع والعشرين من يونيه معاهدة برشلونه ، وبمقتضاها وعد شارل بإعادة فلورنسا لآل مديتشى ورافنا للبابوية والحرية لكليمنت ، ولكن على شريطة ألا يوافق كليمنت مطلقا على بطلان زواج كاترين إلا برضا كاترين وإرادتها الحرة .

ووقع فرانسيس الأول فى الخامس من أغسطس معاهدة كامبراى التى سلمت فى الواقع إيطاليا والبابا للإمبراطور .

وفى ٣١ مايو افتتح كامبيجيو مع ولزى المحكمة المختصة بالمقاصد الرسولى للنظر فى الالتماس المقدم من هنرى ، بعد أن أجل افتتاحها لأطول مدة ممكنة . واستغاثت كاترين بروما ، وأبت أن تعترف باختصاص المحكمة . ومهما يكن من أمر فإن كلا من الملك والملكة حضرا يوم ٣١ يونيه .

وخرت كاترين على ركبتيها أمامه وتوسلت إليه بكلمات مؤثرة أن يستأنفا حياتهما الزوجية . وذكرته بأعمالها الكثيرة وإخلاصها التام ، وصبرها على لهوه خارج الأسوار ، وأقسمت أن الله يشهد على أنها كانت عذراء عندما تزوجها هنرى ، وتساءلت أى شىء صنعته أساءت به إليه(٦٨) ؟ فأنهضها هنرى وأكد لها أنه لم يكن هناك ما يتمناه بحماسة أكثر من التوفيق فى زواجهما وأوضح لها أن الأسباب التى حملته على طلب الانفصال ليست شخصية ، بل أملتها عليه مصلحة الأسرة المالكة والأمة . ورفض استغاثتها بروما على أساس أن الإمبراطور يسيطر على البابا ، فانسحبت وهى تبكى ، ورفضت أن تشترك بعد ذلك فى الإجراءات القضائية . وتكلم الأسقف فيشر مدافعا عنها ومن ثم اكتسب عداوة الملك . وطالب هنرى بصدور قرار واضح من المحكمة وتحايل كامبيجيو على المماطلة فى إصدار الحكم وأخيراً (٢٣ يوليه سنة ١٥٢٩) أجل المحكمة إلى العطلة الصيفية . وألغى كليمنت القضية وحولها إلى روما لكى يجعل التردد أشد حسما .

واستشاط هنرى غضبا وشعر بأن كاترين عنيدة بصورة غير معقولة ، فرفض أن تربطه بها أية علاقة بعد ذلك ، وأخذ يقضى ساعات لهوه علنا مع آن . وربما ترجع إلى هذه الفترة معظم رسائل الحب السبع عشرة التى نقلها كامبيجيو سرا من إنجلترا(٦٩) والتى تحتفظ بها مكتبة الفاتيكان بين ذخائرها الأدبيـــة . ويبدو أن آن المجربة التى خبرت أساليب معاملة الرجال والملوك لم تمنحه إلا تشجيعاً ودغدغة تثير عواطفـــه ، وشكت وقتذاك من أن شبابها يضيع فى الوقت الذى يتوانى فيه الكرادلة الذين لم يستطيعوا أن يدركوا رغبة عذراء فى الظفر برجل ميسور عن عمرا بحق هنرى فى أن يتوج الرغبة برباط الزواج . ولامت ولزى لأنه لم يتعجل البت فى طلب هنرى بعزم أشد وبلاغ أسرع ، وشاركها الملك استياءها .

وقد بذل ولزى كل ما فى وسعه وإن كان يعارض الأمر بكل جوارحه ، وكان قد أرسل بالمال إلى روما لرشوة الكرادلة(٧٠) ولكن شارل كان قد أرسل بدوره مالا وجيشا علاوة على هذا . بل إن الكاردينال كان قد أغضى عن فكرة التزوج من اثنتين(٧١) كما فعل لوثر بعد بضع سنوات ؛ ومع ذلك عرف ولزى أن آن وأقرباءها من ذوى النفوذ يقومون بمناورة لإسقاطه . وحاول أن يهدئ من ثائرتها بالأطعمة اللذيذة والهدايا الثمينة ، غير أن عداءها كان يزداد كلما طال العهد على إصدار قرار ببطلان الزواج . وتحدث عنها فقال : « إنها العدو الذى لم تكتحل أعيناه قط بالنوم ، ولم يكف عن الدرس والتصور معا ، فى النوم واليقظة على السواء ، للقضاء المبرم عليه(٧٢) » . وتلبأ بأن البطلان لو منح فإن آن سوف تصبح ملكة وتقضى عليه ، وأنه لو لم يمنح ذلك القرار فإن هنرى سوف يستغنى عنه باعتباره رجلا فاشلا . ويطلب محاسبته على إدارته ، حسابا ماليا دقيقا مفصلا .

وكان لدى الملك أسباب كثيرة لعدم الرضا عن حاجبه ، فقد فشلت السياسة الخارجية وأثبت أن التحول من صداقة شارل إلى الحلف مع فرنسا قد أدى إلى عواقب وخيمة :

ولم يكن فى إنجلترا وقتذاك امرؤ يقول كلمة طيبة فى صالح الكردينال الذى تمتع يوما بسلطة مطلقة ، فقد كان رجال الدين يكرهونه بسبب حكمه المطلق ، وكان الرهبان يخشون أن يشهدوا مزيدا من حل الأديار ، والعامة يبغضونه لأنه أخذ أبناءهم وأموالهم لشن حروب لا طائل من ورائها ، والتجار يمقتونه لأن الحرب مع شارل عاقت تجارتهم مع الفلاندرز ، والأشراف يكرهونه بسبب ما انتزعه منهم ظلما ، ولكبريائه

الطارئة وثروته التى تضاعفت سريعاً . وأبلغ بعض الأشراف السفير الفرنسى (١٧ أكتوبر سنة ١٥٢٥) بقولهم إنهم « ينوون » عندما يموت ولزى أو يقضى عليه أن يتخلصوا من الكنيسة ويتلقوا أموال الكنيسة وولزى معا(٧٣) » : واقترح القماشون فى كنت أن يوضع الكردينال فى قارب يتسرب منه الماء ، ويترك لتتقاذفه الأمواج فى البحر(٧٤).

وكان هنرى أشد دهاء . وفى اليوم التاسع من أكتوبر سنة ١٥٢٩ أصدر أحد وكلائه أمرا قضائياً باستدعاء ولزى للمثول أمام قضاة الملك ، للرد على اتهام بأن أعماله كقاصد رسولى قد خالفت قانون الخضوع لسلطة التاج (١٣٩٢) ، الذى يقضى بمصادرة أموال أى إنجليزى يأتى بالكتب البابوية إلى إنجلترا . ولم يختلف الموقف لأن ولزى كان قد كفل سلطة القاصد الرسولى بناء على طلب الملك(٧٥) ، وأنه استخدمها بخاصة لصالح الملك ، وأدرك ولزى أن قضاة الملك سوف يدينونه فأرسل إلى هنرى امتثالا ذليلا ، يعترف بفشله ويلتمس أن يتذكر الملك أيضاً خدماته وآيات ولائه . ثم غادر لندن فى نقالة مائية سارت فى نهر التيمس . وتلقى فى بوتنى رسالة رقيقة من الملك . وجثا على الطين فى شكر بائس وحمد الله . واستولى هنرى على المحتويات الثمينة فى قصر الكاردينال فى هويتهول إلا أنه سمح له بالاحتفاظ بمنصب رئيس أساقفة يورك وبأموال شخصية تكفى احتياجات ١٦٠ جوادا تجر ٧٢ عربة إلى مقره الأسقفى(٧٦). وخلف الدوق نورفولك ولزى فى رئاسة الوزارة وخلفه مور فى منصب الحاجب (نوفمبر سنة ١٥٢٩) .

وأقبل الكاردينال الذى جرد من سلطانه ، على عمله ، كبير أساقفة ، فى ورع ومثالية ، وأخذ يزور أبرشياته بانتظام ويدبر ترميم الكنائس ،

ويعمل قاضيا موثوقا به للتحكيم . وتساءل رجل من يوركشاير : « من كان أقل نصيبا من الحب فى الشمال من مولاى الكاردينال قبل أن يعيش بينهم ؟ ومن كان محبوبا أكثر بعد أن عاش هناك فترة ما(٧٧) ؟ » بيد أن الطموح استيقظ فى أعماقه مرة أخرى وسكن روعه من الموت وكتب خطابات ليوستاس شابويس سفير الإمبراطور فى إنجلترا ، وضاعت هذه الخطابات ، بيد أن هناك تقريراً من شابويس إلى شارل ورد فيه : « لدى خطاب من طبيب الكاردينال يقول إن سيده . . رأى أن على البابا أن يمضى قدما فى إجراءات لوم أشد ويستدعى الجيش العلمانى(٧٨) » . أى الحرمان من غفران الكنيسة والغزو والحرب الأهلية .

وعلم نورفولك بهذه الرسائل المتبادلة وقبض على طبيب ولزى وانتزع منه ، بوسائل لم تعرف على وجه التحقيق ، اعترافا بأن الكردينال قد أشار على البابا بحرمان الملك من غفران الكنيسة . ولا نعرف هل كان السفير أو الدوق هو الذى أبلغ صدقا عن الطبيب ، أو هل كان الطبيب هو الذى أبلغ حقا عن الكاردينال ، وعلى أية حال فإن هنرى أو الدوق أمر بالقبض على ولزى .

واستسلم فى هدوء (٤ نوفمبر سنة ١٥٣٠) وودع أسرته وانطلق إلى لندن . وأصيب فى شفيلد بارك بدوسنطاريا شديدة ألزمته الفراش . وهناك أقبل جنود الملك يحملون أوامر باقتياده إلى البرج . واستأنف رحلته ، ولكن بعد مضى يومين من الركوب بلغ من الضعف حدا جعل حارسه يسمح له بأن يلزم الفراش فى دير ليسيستر . وغمغم أمام ضابط الملك سير وليام كنجستون بالكلمات التى نقلها كافنديش واقتبسها شكسبير « لو أننى خدمت الله بإخلاص وجد كما خدمت الملك لما أسلمنى فى شيخوختى(٧٩) » . ومات ولزى بالغا من العمر خمسة وخمسين عاما فى دير ليسيستر يوم ٢٩ نوفمبر سنة ١٥٣٠ .